لا تُواروا الشّيب

يبدأ البعضُ بالإنصات إلى العمر إذا انعكس على سطح مرآته انسكاب خيوط من سحاب تومض شعيرات الرأس، في بياض ساكن لا يبرح مُقامه، ولا يستتر سناه بتبديل طريقة تصفيف الشعر، عصيّ الإضمار طيّع الانتشار، ويداهمُ النّفسَ بكل الأسئلة المتحريّة عن مصير وديعة السنين الماضية التي يسمّونها العمر، وبينما يتصدّى البعض للإجابة فيسيلونها في كأس اللّوم علقماً، يُعرِض الآخرون عن الاستماع إلى نذير المشِيب، فلربما إنْ غفل البصر، لملمَ الشيبُ شتات لونه وانغمس مع الأغلبية في محبرة الشباب. ألا ليتهم لم يبخسوا أعمارهم حقّها لَمَا قهروا أنفسهم بتكذيب حاضرهم الكسير، ولَمَا استنجدوا من ماضيهم جَبراً وأنّى للميت أن يُجير! يُستثنى مِن جموعهم كوكبةُ صُنّاع المستقبل، ثلّة إذا همد في أبدانهم العمر لم تنثنِ في قلوبهم أعواد الياسمين، منهم كافل الصدّيقة مريم وأب النبيّ ذي الحنان، سيّدنا زكريا عليهم ثلاثتهم أطيب صلاة وتسليم.

ففي مشهد تعبديّ خالد في القرآن الكريم، تلهج عاطفة الأبوّة في سيّدنا زكريّا عليه السلام بالإقرار بتمام انقطاع كافّة الأسباب الدنيوية التي قد توفر له وارث مباشر ليستكمل دعوة النبيّين من بعده كابن له من صلبه أو وارث غير مباشر من مواليه يربيه ويعلّمه. قال سبحانه: "قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا". وها هنا يتجلّى حصاد العمر وفي هكذا مواقف يتجاوز الشّيب حيّز الزمن الحاليّ، ليشهد على سنين تفيّأت في عبادة الله وهاجرت إلى خدمة دينه، فاستعاضت عن بريق الدنيا بشمس العبودية لله وحده، حتى منحتها من وهجها شعع دفءٍ بيضاء تُسرّح الشتاء إذا ما هبّ يعصف بالعمر، ويشرح الإمام أبو السّعود حال قلب الأب المتوسل بالله بما عند الله، بقوله :"ولم أكن بدعائي إيّاك خائباً في وقت من أوقات هذا العمُر الطويلِ، بل كلّما دعوتُك استجبتَ لي،... فإنّه تعالى بعد ما عوّد عبدَه بالإجابة دهراً طويلاً لا يكاد يُخيّبه أبداً لا سيما عند اضطرارِه وشدّة افتقارِه".

ولأنّه عليه السلام نصر دين الله في شبابه، ولم تشهد سنين عمره أنْ خمل قلبه عن ذكر الله لنعماء ذاقها أو فترت صلته بالله لنازلة أحاطت به، كما جاء في وصف القرآن له ولأسرته: "إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَارِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُواْ لَنَا خاشِعِينَ. ولأنّه عليه السلام قضى عمره راضياً بالله ربّاً كما بيّن الإمام الشعرواي : "ومعنى: (وَكَانُواْ لَنَا خاشِعِينَ) يعني: راضين بقدرنا فيهم، راضين بالعُقْم على أنه ابتلاء وقضاء، ولا يُرفع القضاء عن العبد حتى يرضى به، فلا ينبغي للمؤمن أنْ يتمرَّد على قدر الله، ومن الخشوع التطامن لمقادير الخَلْق في الناس".لأجل ذلك كلّه ولأنّه عليه السلام رجل ليس كأيّ رجل، فلم يجزع من احتلال الشّيب وغزو الكِبَر، بل تذلّل بين يدي الله تعالى بحاله هذا، وقد فقه لذّة التعلّق برحمن لا ينقطع وابل فضله، ولا ينحسر فيض إحسانه، فيغمر بجوده الطالب ويمهل بعفوه المدبِر، فمن حرّر عاطفته وهو في ذورة شبابه من قيود الهوى وروّضها في مراتع محبّة الله تعالى، واستودع عقله مرضاة الله تعالى، لم يترك للشيب ثغرة يصدع بها جُدر الحزن على التقدّم في السنّ.

وهناك قوم من المقتدين بسيّدنا زكريا عليه السلام، من علماء ومجاهدي ومُطارَدي وأسرى أمتنا لم يحملوا من الشّيب علامات العمر بل حملوا من الشيب رماد لظى أضرمت في أعماق الإنسانية من حولنا، فاكتست رؤوسهم بالشّجن مبكراً يحاولون خرق السواد وقهر ظُلمته ببياض الأمل المطمئن في قلوبهم وإنْ وهن من الأمة عظمها، ويناجون ربّهم بأنْ يُحيي وتين الحريّة بيقينهم بقرب البشرى، فذلك على الله هيّن، رغم حشود الشائبين المتخاذلين الملطّخة بالأحمر النّازف لحاهم، هناك بياض صادق لم يبع العمر ليشتري بضاعة مغشوشة كسدت عند الصالحين رائجة على موائد الجور والبغيّ، بياض يشتعل في ديجور ليلنا فيشطر الظلم ليتنفس الصبح من جديد.